حول الغموض والوضوح أيضا

للاستاذ عباس فضلي خماس

« هل يحسن بالشعر أن يكون واضحا حتى لا خلاف فيه
أم أن بعض الغموض فيه مقترن بل مطلوب » — ط . ح —

يذكر قراء الرسالة ان الدكتور طه حسين كان قد عقد فصلا ممتعا حول غموض الشعر ووضوحه ، وكان خلال بحثه يرمي الى غاية ، وهي ان الشعر الغامض قد ينطوي على ابداع فني . ويذكرون ايضا انني علقت على الموضوع بكلمة ذهبت فيها الى ان الجمال والغموض لا يجتمعان في صعيد واحد ، وانتهيت الى ان كل بديع في هذا الكون من منظر الى صوت الى شعر يلازمه الوضوح كيفما تكيف وتطور او تصور ، وان الوضوح هو جوهر الجمال .

وكان لي من تعليق على مقال الدكتور غرض جوهري لم يخف على القارىء الاديب كما كان لي من ورائه امل في ان يشط الادباء للكتابة حول الموضوع بالنظر لما أعتقده فيه من خطورة . وقد تحقق شيء من هذا الأمل بتعليق الاديب الفاضل شوقي ضيف على مقالي حول الغموض والوضوح بما يعرفه القراء الذين تتبعوا هذا البحث .

يتساءل الدكتور طه حسين « هل يحسن بالشعر ان يكون واضحا حتى لا خلاف فيه »

نعم يحسن بالشعر ان يكون واضحا حتى لا خلاف فيه اذا كان هم الشاعر ان يضمنه صورا جميلة ، وسوانح رائعة ، لأن القارىء لا يستطيع ان يتبين الصورة الجميلة اذا كانت مغمورة في حجب الغموض الكثيفة ولا تتأثر نفسه بروعة السوانح الفكرية ، والخوالج النفسية اذا كانت متلفعة من الشعر الغامض بأستار مظلمة .

الشعر الفاظ وتعابير ، يستعين بها الشاعر على وصف مشاهد الكون وتصوير الحادثات ، والانفعالات والانطباعات النفسية المتكونة من تأثير المحيط الخارجي في نفسه . فهو اذن وسيلة وليس غاية . والشعر بالفاظه وتعابيره واء طلاحاته واوزانه وقوافيه للشاعر كالقيثارة او الكمان او البيان للموسيقي . يجلس الموسيقي على شاطىء بحر في ليل عاصف ، فتأثر نفسه بصفير الرياح وهزيم الرعد وتلاطم الامواج ، فيحاول ان يصور تأثير نفسه بانغام يتخيلها اولا ، ثم يؤلف بين متصاعداتها ومتنازلاتها ، ويوفق بين نموجاتها مستعينا بآلاته الموسيقية حتى يهتدي الى تاليف قطعة موسيقية تتضمن من الانغام ، ما لو سمعها الانسان لشعر بنفس التأثير الذي تأثر به الموسيقي وخيل اليه انه في مجلس ذلك الموسيقي من شاطىء البحر في تلك الليلة .

ويجلس الشاعر مجلس هذا الموسيقي . ويتأثر بنفس ما تأثر به زميله ، فيحاول ان يصف تأثره ويصور انفعالات نفسه بتخير الالفاظ والتعابير التي تحمل تلك التأثيرات الى نفوس السامعين ليجسم لهم الخيال المتولد من تأثير هذه الالفاظ والتعابير ، صفير الريح وهزيم الرعد . كما يجسم لهم شعور الاستياء من الظلام الذي يشمل الطبيعة في ذلك الموقف

هذا اذا كان الأول يملك من الآلات الموسيقية ومن القابليات الفنية الخاصة بالموسيقى ما تمكنه من بلوغ غاية نفسه .

واذا كان الثاني ذا نفس شاعرة حساسة دقيقا في تصوره ، متقنا في تصويره ، مالكا زمام الالفاظ والتعابير يحسن استعمالها في مواطنها ، حاذقا في أسلوبه ، عالما بنفسيات الناس وما تتأثر به والى غير ذلك من الصفات التي يجب ان تتوفر في الشاعر

فاذا لم يتصف الموسيقي بما مر ذكره . أسمعنا ولاشك قطعة مزعجة في نغماتها ، لا تناسب ولا وئام بين نموجاتها . فلا تولد في النفس التأثير الذي قصد الموسيقي اليه . وكذلك الشاعر اذا لم تتوفر فيه الصفات التي ذكرنا بعضها اسمعنا كلاما غامضا لا نكاد نتبين منه قصده ، واذا لم يتبين الانسان قصد الشاعر بما نظم فأين يا ترى يكون موضع الجمال ومحل الابداع ، وموطن الروعة من شعره ؟

لكي يفلح الشاعر في وصف الجمال او القبح وتصوير اللذة او الالم وغيرها من الحادثات النفسية يجب ان يكون صافي الذهن والنفس ، واضحا في تعابيره واصطلاحاته . استعرض مناظر الكون جمعاء ، تحت نور الشفق الفاتن الأدكن ، وتحت أشعة الهاجرة المتوهجة ، أو تحت نور الأصيل الذهبي الفاتح ، وتحر الجمال وابحث عن الروعة في هذه المناظر ، تجد نفسك مهديا اليهما دون أي عناء ، وتراك تنجذب الى مواطنهما كما تنجذب الفراشة الى الورود والازاهير الزاهية بالوانها الفياحة بأريجها .

فالجميل يكهرب حواسك ، والبديع يمغطس مشاعرك ، فيجذبك اليه فتنجذب . وما ذلك الا للتناسب الظاهر بين اجزائه وللنظام المسيطر على تراكيب تلك الاجزاء والاشكال ، وهذا هو سر الوضوح .

استعرض دواوين الشعر ديواناً ديوانا ، واقرأ قصائدها واحدة بعد واحدة ، تجد نفسك تعرض عن قراءة بعضها بينما تقبل على قراءة بعض آخر ، ابحث فى نفسك عن سبب اعراضك وتلس دواعى إقبالك ، تجد أنك فى الحالة الأولى لا تستطيع أن تهتدى تحت جنح ظلام الغموض الى الجمال واللذة اللتين تنشدهما نفسك كما تجد أن نور الوضوح فى الحالة الثانية ينير نفسك فتهتدى الى الجمال وتلمس اللذة .

أما أن يكون هناك غموضان أو نوعان من الغموض كما يرى الاديب الفاضل شوقى ضيف ، فهذا ما لا أتفق معه عليه ولا إخال أحداً من الأدباء يوافقه فى مذهبه .

فالكلام إما أن يكون واضحاً وإما غامضاً ، وكل ما نرى أو نسمع أو نلمس ، وكل ما تتأثر به أنفسنا بطريق الحواس : إما أن يكون واضحاً بتأثيره فى النفس ، وإما أن يكون غامضا ، ففى الحالة الأولى تتلذذ به لأن نفسنا تستطيع أن تلمس جماله ، وتعانق ابداعه ، وتحتضن روعته ، وفى الحالة الثانية تشمئز منه وتنفر ؛ فنفسنا لا تتأثر به ، لأنها لا تلمس منه إلا شيئاً واحداً ، وهو الألم الذى تعانيه من معالجة حل رموزه وطلاسمه . فاذا كانت ثمة نتيجة من قراءة الشعر الغامض ، فهى ليست حينئذ لذة من تلمس أثر جمال أو روعة ، وإنما هى شعور بألم الحيرة ، ولذة الراحة بعد العناء .

ومثل الذى يعالج استنباط المعنى أو الغرض من الشعر الغامض ، كمثل من يتوهم أن فى بقعة من الأرض ركازا ، فيظل ينبش أرض تلك البقعة الى أن يعييه الاجهاد ، ولما لم يجد ما يتوهم وجوده يطارح بمعوله جانبا وهو يلهث كما يطرح بنفسه على الأرض وهو غير مفلح إلا بشيئين : ألم ، ولذة . أما الأول فناشىء من شعور الخيبة فى العثور على كنزه الموهوم . وأما الثانى فشعوره الناشىء من لذة الراحة بعد التعب والعناء .

أما الأديب الفاضل شوقى ضيف فقد أوجد غموضين «لجمال» الغموض الأول « من حنادس الليل بحجب وأستار » فجعله بذلك مشتملا على ظلام موحش وحلوكة دامسة . أما الثانى فقال عنه إنه غموض جميل « لا تنفر منه النفس ولا تستوحش ، وإنما تقبل عليه وتهش له وتجد فيه لذة ومتاعا كبيرا » ثم راح يشبه غموضه الجميل بالظلال التى لا «تحجب النور» ، وارتأى أنه لا يحول بين المرء وبين التأثر الجميل بالقطعة الشعرية ، وأنه مثار للاعجاب ومبعث للسرور ، وما إلى ذلك .

والعجيب كل العجب أن الأديب الفاضل لم يبتعد كثيراً عن غموضه الجميل الذى شبهه بالسدول الرقيقة التى يرخيها الضباب على الطبيعة ، حتى أخذ يسرد لنا أسبابه ويشرح علته ، فاذا به يعود الى الضرب على نفس الوتر الذى ضربنا عليه ، فقال : إن كثيراً من الغموض يرجع أسبابه الى فقر اللغة وقصورها فى الافصاح عن عواطف الشعراء وميولهم ؛ ثم أردف هذه الأسباب بأخرى وهى تعقد الحياة النفسية وإبهامها وغموضها ، ثم انتهى الى أن هذا الغموض سيظل مسيطراً على الشعر حتى تتضح الحياة النفسية .

أما قصور اللغة فى الافصاح عن بعض الحوادث النفسية الدقيقة فأمر لا ننكره ولا ينكره أحد من الناس ، ولكن ذلك لا يعنى بان الشعر الغامض يجب أن يكون منطويا على جمال رائع ، وفن بديع ، ولا يسوغ لنا أن نعتبر الكلام المرتبك الغامض شعراً كما أنه لا يجوز لنا أن نعتبر الناظم الذى لا يوفق لتصوير خوالج نفسه وعواطف روحه وانفعالاته شاعرا مبدعا

واذا القيت نظرة متأمل الى ضروب الشعر الوجدانى والعاطفى تبين لك أن بين هذا الشعر ماقد تمكن من أن يصف لك أعمق العواطف البشرية وأدقها بأبرع اسلوب وأتم بيان ، ومنه ما كان بالفاظه وتعابيره أشبه بالاحاجى والالغاز منه بالكلام المفهوم

وقد يجوز أن تجيش فى نفس الانسان بعض الخواطر البديعة والمشاعر الرائعة ، وقد يجوز أن يحتدم جيشانهما فى أعماق نفسه فيضطرب شعوره بها ويظهر هذا الاضطراب ويفيض من جوانحه الى جوارحه فيصبح على أشبه ما يكون بثورة نفسية ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يظهر لغيره ما تكنه نفسه لأنه ليس بشاعر ليتمكن من التوفيق بين الكلمات والتأليف بين التعابير ، المصطلحات اللفظية التى تحمل الى نفوس الناس وافهامهم ماخالج نفسه وما أثار شعوره وإحساسه ، أو لأنه ليس برسام ليستطيع أن ينقل بريشته الوان تلك الصور والأشكال التى تأثرت بها نفسه ، أو لأنه ليس بالفنان الذى يستطيع أن يستخدم وسائل فنه لتصوير ما جاش فى نفسه ووصف ما اضطرب له حسه .

فان شعوره ولاشك يبقى مطمورا فى باطنه ، ولا يمكن البتة ان يتأثر احد سواه بما تأثر به هو ، ومثل الشاعر الغامض الذى ينظم

قصيدة فيقرأها الناس ولا يفهمون ما اراديها وماقصد ، فيضطرون الى ان يسألوا منه عن مراده وقصده — كمثل كل انسان اعتيادى بما يشعر به تجاه مظاهر الكون وحوادثه .

والسبب الثانى الذى اورده الاديب الفاضل شوقى ضيف على غموض الشعر هو تعقد الحياة النفسية وابهامها ، ولعله قاصد بهذا التعقد والابهام عجز الانسان عن تبين ماهية بعض من ميول نفسه ونزعاتها ورغباتها وانفعالاتها و . . . الخ

نعم ان الحياة النفسية معقدة بالرغم من مجهودات البشر العلمية فى تحليلها الى ابسط ما يمكن ، وستظل معقدة بل سيزيد تعقدها وابهامها كلما تقدمت جهود الانسان العقلية فى البحث عن كنه النفس واسرار حوادثها .

اما ان يظل الشعر يلازمه الغموض ما دامت الحياة النفسية غامضة فهذا حكم غير صائب ، ولعل الاديب الفاضل قد تورط اضطرارا فى هـــذا الحكم وذلك لأنه ضيق على نفسه بيده مجال البحث فناط بالشعر وحده دون سواه من الفنون الجميلة اماطة اللثام عن اسرار هذه الحياة النفسية .

لا يا أخى شوقى ! ما كان الشعر فى جميع أدوار حياته ، ولن يكون وحده الكفيل الضامن للغموض بهذا العبء الثقيل ، فقد وجدناه فى سالف العصور ونجـــده الآن يمد يده الى اخوته ، الفنون الجميلة مثل الرسم والنحت والموسيقى حتى الرقص يستعين بها على بلوغ هذه الغاية .

فهناك بعض الحوادث النفسية لا يستطيع الشعر أن يصفها بما لديه من وسائل ، وتستطيع ريشة الرسام أن تبرزها واضحـــة ، فعدم استطاعة الشعر فى مثل هذا الموقف يجب ألا نعتبره عجزاً منه وتقصيراً بل هو فى الحقيقة تكليفه بالخروج عن نطاق اختصاصه وقابليته كما أن هناك بعض الخوالج النفسية يعجز عن ابلاغها إلى النفوس كل من الشاعر والرسام والممثل والموسيقى ، ولكن راقصة رشيقة فانة تتمكن بحركات خاصة أن تعبر عنها وتجسم تأثيرها فى النفوس .

فمطالبة الشعر وحده بكشف أسرار الحوادث النفسية ووصفها وتصويرها على اختلاف أنواعها وضروب تأثيراتها هو السبب الذى حدا ببعض المفكرين أن يردوه بعلة الغموض ، هذه العلة التى راحوا بعد اختراعها يتخرون بين طياتها الجمال الموهوم والابداع المزعوم .

بغداد — عباس فضلى خماس

فى محكمة التاريخ

الوزير مؤيد الدين بن العلقمى

هل غدر بأمته وخليفته؟

— ١ —

إن موضوع الخيانة العظمى التى تتهم جمهرة المؤرخين هذا الوزير بها موضوع دقيق ، اذ ليس لدى من يعرض لهذا الحادث التاريخى المهم الادلة الكافية التى تخرجه بنتيجة حاســـمة لا جدل فيها ولا مغالطـــة ، وكيف يتسنى لكاتب ان يصل لحقيقة تحيط بها الشكوك وتكتنفها الظنون ؟ لأن مايظهره بعض من كتبوا أو قل تعرضوا لهذا الأمر الخطير من ميل مع هوى النفس وخضوع للعواطف يزيد فى التحير والتشكك . زد على هذا وقوع هذا الحادث فى فترة فوضى واضطراب استولى الرعب فيها على مشاعر الناس ، وكيف لا وهى فترة تقتيل وتشريد وتحريق وتدمير . وفى احوال كهذه يجب التمك ، ويلزم الحذر والتنبه لاكثر ما يروى عما يقع عادة فى خلال هذه الاحوال المضطربة ؛ لأن الفزع والذعر يخرجان المرء عن الطبيعة الهادئة المتروية التى تتطلبها رواية الحوادث ولا سيما الهامة منها . فلاضطراب والتشويش صنوان متعانقان فضلا عن رواج سوق الشائعات ، ولا سيما الباطلة منها فى اوقات الانقلابات والاحداث السياسية المهمة ، وسأضع الآن بين أيديكم ما تقوله المصادر الأوليـــة عن هذا الحادث ، مبتـــدئا بالمصادر حسب اوليتها ، وبعد ان افرغ من ذلك سأحاول جهدى المقابلة بين المصادر ، ثم نقده واطن الضعف فى كل مصدر . وأبدأ بما يقوله ابن الطقطقى فى صدد الكلام عن مخامرة الوزير (ونسبه الناس انه خامر . وليس ذلك بصحيح . ومن أقوى الادلة على عدم مخامرته سلامته فى هذه الدولة ، فان السلطان هلاكو لما فتح بغـــداد وقتل الخليفة سلم البلد الى الوزير وأحسن اليه وحكمه ، فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق اليه) (١) وبعد أن ينتهى من هذا البرهان يذكر لنا روايته عن تصلب الوزير واصراره على عدم الخروج الى هلاكو . ويروى المؤرخ هـــذه الرواية عن ابن أخت الوزير ، ومؤداها أن الخليفة طلب وزيره وقال

(١) الفخرى طبعة مصر ص ٣٠٢